بسم الله الرحمن الرحيم

المعطى الدلالي لشعر المديح وطابعه الديني
في عصر سلاطين المماليك والعثمانيين

أستاذ دكتور
نبيل خالد أبو علي

كلية الآداب
الجامعة الإسلامية - غزة

كلمة لابد منها :

لم يُظْلَم عصر من عصور العربية كما ظُلِم العصران المملوكي والعثماني ، فقد شكك العديد من الدارسين في حكامهما وغمطوهم حقوقهم ، وحكموا على نتاجهما العلمي والأدبي بالضعف والانحطاط ، وأغفلوا ذكر فرسان الحلبتين ، من علماء وأدباء وشعراء .

اختلفوا حول إخلاص حكام العصرين للإسلام والمسلمين ، ومدى معرفتهم باللغة العربية ، وهل تهيأت الأسباب لوصولهم للحكم كما تهيأت للخلفاء الأمويين والعباسيين ، وكذلك للفاطميين في مصر والمغرب العربي والأيوبيين في مصر والشام ، أم أنهم قوة احتلال اغتصبت الحكم ثم سامت الناس خسفاً، وإذا حدثنا التاريخ عن جور أحد السلاطين المماليك والعثمانيين ، أو بعضهم ، فهل لم يحدثنا عن جور بعض حكام الدول السابقة ؟!

أظن أن الأمر معلقٌ على أصولهم غير العربية ، وما مس المماليك منهم من رق في بداية حياتهم، ثم كيف أضحوا سادة وحكاماً ، وكيف يحوزون شرف الدفاع عن العروبة والإسلام ، إضافة إلى حقد أعداء الأمة عليهم ، وامتداد هذا الحقد إلى أحفادهم الصليبيين ، الذين سعوا جاهدين إلى تشويه هذه الحقبة المشرقة

، فدسوا المفاهيم الخاطئة في مناهج التعليم في مطلع العصر الحديث([1])، هذه المفاهيم التي تُقرر سلفاً أن هؤلاء الحكام اغتصبوا السلطة ، وأن عصرهم عصر تخلف وانحطاط . ونشير في هذا المقام إلى "السير دنلوب" الذي خطط سياسة التعليم للدول العربية ، فعندما جاء "كرومر" إلى مصر كأول حاكم بريطاني فيها قال : "إن مهمة الرجل الأبيض الذي وضعته العناية الإلهية على رأس هذه البلاد هو تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن ، بحيث تصبح هي أساس العلاقات بين الناس"([2]) ، ولتحقيق هذه الغاية عَيَّن قسيساً حديث التخرج من كلية اللاهوت بلندن يُدعى "دنلوب" في منصب مستشار وزارة المعارف المصرية ، وجعل في يده كل السلطات الفعلية لوزارة المعارف ليتمكن من وضع سياسة تعليمية تحقق أهداف الصليبيين .

وقد اجتهد القس "دنلوب" في تحقيق رؤية قائده "كرومر" ، مستهدفاً المحاور الرئيسة الثلاثة للعملية التعليمية ، المناهج الدراسية ، والأساتذة ، والتلاميذ . فعمد إلى دس سموم حقده الصليبي في المناهج الدراسية ، وغرس مفاهيم خاطئة عن بعض الحقب التاريخية المشرقة بانتصار الإسلام والمسلمين ، خاصة العصر المملوكي الذي استأصل الوجود الصليبي من الشرق الإسلامي ، ساعياً إلى تجهيل التلاميذ، وصرفهم عن تراث أمتهم المجيد ، وكما يرى محمد قطب فإن سياسة "دنلوب" في تخطيط المناهج التعليمية لم تتوقف عند تهميش اللغة العربية ، وإبعاد الطلاب عن تعاليم دينهم الحنيف ، وتشويه تاريخ أمتهم ، وصرف أنظارهم عن تراثها المجيد ، واستبعاد الهجمات الصليبية على العالم الإسلامي وما ارتكبته من جرائم من المناهج الدراسية ، بل تجاوزت ذلك إلى مكافأة المدرسين المتميزين في تطبيق سياسة التغريب بإرسالهم إلى إنجلترا ، ليزداد صقلهم ويُصاغوا من جديد صياغة أدق وأشمل ، ليستفاد منهم على نطاق أخطر ، فإذا ما عادوا يوضعون في مراكز التوجيه ، ليكون أثرهم في الإفساد أشمل وأوسع حتى إذا صار أحدهم في نهاية المطاف وزيرًا للمعارف حطم من مقدسات قومه ، وفعل ما لم يكن يجرؤ "دنلوب" على فعله..([3]) .

لقد حققت سياسة القس "دنلوب" نتائجها ، وأصبحنا نرى العديد من الدارسين والباحثين العرب يقررون سلفاً ما أراده الصليبيون من صفات لهذين العصرين ، ويجتهدون في التدليل عليها . وقد اعترف الصليبيون المحدثون بذلك ، وتفاخروا بما حققوه ، كما نرى في قول القس "زويمر"([4]) مقرر مؤتمر المبشرين الذي عُقد في القاهرة عام ١٩٠٦م : "ليست مهمتنا تنصير المسلمين ، فهذا شرف ليسوا جديرين به ، ولكن مهمتنا هي صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام ، وفي ذلك نجحنا نجاحاً باهراً بفضل مدارسنا التبشيرية ، والسياسة التعليمية التي وضعناها للبلاد الإسلامية .."([5]) .

وتبقى الحقيقة التاريخية التي تقرر أن المماليك والعثمانيين ليسوا قوة احتلال ، وأن عصرهم الممتد من عام ٦٤٨ حتى ١٣٥١ هجرية لم يسوده الجهل والتخلف ، فالمماليك - مثلاً - الذين اجتهد الدارسون في القدح في صفاتهم هم مماليك السلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب ، الذين اصطفاهم واجتهد في تنشئتهم تنشئة عربية إسلامية ، ودَرَّبَهم على الفروسية وفنون القتال ليكونوا قوام جيشه وذخر وطنه ، وبعد وفاة سلطانهم انتقل الحكم إليهم بطريقة طبيعية ، إذ حكمت بنت جلدتهم "شجر الدر" ، التي مسها الرق كما مسهم ، ومع بداية حكمها سنة ٦٤٨ هجرية بدأ ما اصطلح المؤرخون والدارسون على تسميته باسم العصر المملوكي.

([1]) وقع العالم العربي في قبضة الاحتلال الصليبي بعد سقوط الخلافة العثمانية عام ١٣٥١هـ / ١٩٢٢م ، وفي سنة ١٩٤٥م وقَّعت بريطانيا اتفاقية الجلاء عن مصر ، ثم حصل السودان منها على حق تقرير المصير في سنة ١٩٥٣م ، وفي سنة ١٩٦٢م حصلت الجزائر على استقلالها من فرنسا ، وكذلك نعمت اليمن بالحرية سنة ١٩٦٢م ، والعراق سنة ١٩٥٨م .

([2]) محمد قطب : واقعنا المعاصر ، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر ، السعودية ، ١٩٨٦م ، ص ٢١٦ .

([3]) راجع : واقعنا المعاصر ٢١٧ - ٢٣٤ .

([4]) زويمر مبشر بروتستانتي كان له نشاط واسع في البلاد الإسلامية ، وأوصى قبل موته أن يدفن في مقابر اليهود ، مما يدل على أصله اليهودي ، وحقده اليهودي والصليبي على المسلمين .

([5]) واقعنا المعاصر ١٩٧ ، وانظر أيضاً ما قاله في المؤتمر التبشيري الذي عُقد في القدس سنة ١٩٣٥م . ص٣٨٦ .

وأنهم كانوا خير خلف لخير سلف إذ تصدوا للزحف المغولي الهمجي على ديار المسلمين ، وقطعوا أيدي الدمار ، واجتثوا وجودهم من الشرق الإسلامي بأسره ، وكذلك قضوا على أحلام الصليبيين في البلاد التي تفيض عسلاً ولبناً([1]) ، واستأصلوا إماراتهم وحصونهم من بلاد الشام واحداً تلو الآخر .

أما اتهام هذا العصر باضمحلال الثقافة وانحطاط مستوى الأدب ، فهو اتهام لا أساس له من الصحة ، إذ لم يترك عصر من عصور العربية موسوعات وكتباً في شتى فروع المعرفة أكثر من هذا العصر ، ولم يضم عدداً من العلماء والأدباء أكبر من عددهم ، ألم يرث حضارتي المشرق والمغرب الإسلامي ، ويحسن وفادة العلماء والأدباء الفارِّين من وجه المغول في بغداد والفرنجة الصليبيين في الأندلس ؟! .

لقد أسهب القدماء في الحديث عن دور العلم وحركة التأليف ومجالس الأدباء في مدن مصر والشام، ويكفي في هذا المقام أن نذكر قول عبد الرحمن بن خلدون : "مصر أم العالم ، وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم ، ومنارة الأدباء الفارين من وجه المغول حتى كثر روادها ، واكتظت جوانبها وأنديتها بطلاب العلم والمعرفة"([2]) .

أما الحركة الأدبية فلم يختلف أداؤها عن أداء الحركة العلمية ، وقد رأينا اهتمام سلاطين المماليك باللغة العربية وعلومها ، وكيف اعتنوا بأمراء البيان وأسندوا إليهم أرفع المناصب في دواوين الدولة ، وحازوا احترام الناس حتى أضحوا قدوة وأنموذجاً يحفز الشباب على إتقان العربية ويجيدون البيان لعلهم يحوزون مكانة مثل مكانتهم .

وقد سار السلاطين العثمانيون على خطى المماليك ، وتوسعوا في الفتوحات الإسلامية حتى تمدد الإسلام في العديد من دول أوروبا إضافة إلى قارتي أسيا وإفريقيا ، وقضوا على الخطر الصليبي حينما اقتحموا عرينه وجعلوه تابعاً لدولتهم التي لا تغيب عنها الشمس ..

وبالرغم ما يُقال عن انصراف السلاطين والأمراء عن منح الأعطيات والهدايا للشعراء ، وأن الشعر لم يَعُد حرفة يرتزق منها الشعراء ، فقد استمر نهرُ الشعر العربي دفاقاً ، وحافظ على مكانته في نفوس الخاصة والعامة ، وكان التوجه الديني السائد في ذلك العصر باعثاً من بواعثه ، ورافداً من أهم روافد قوّته ، حيث وجد في ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه معيناً لا ينضب ، ووسمت الثقافة الإسلامية معانيه وألفاظه وصوره بالميسم الديني . كذلك وجد في أعمال السلاطين والأمراء ، وبطولاتهم في التصدي لأعداء الدين والأمة ما أعانه على الارتباط بالطبع الصادق أكثر من ارتباطه بالرياء وبهرج الصنعة الزائفة .

([1]) حث البابا "أوربان الثاني" المؤتمرين في مجمع الأساقفة بمدينة كليرمونت عام ١٠٩٥م على غزو المشرق الإسلامي ، ومما جاء في هذا الخطاب قوله : "وخلصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلسين ، وأنتم املكوها لذواتكم ، فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبناً وعسلاً .." . راجع كتابنا : قصة الحروب الصليبية ، الطبعة الأولى ، غزة ١٩٩٢م ، ص ١٣ .

([2]) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة ١٣٢١ هـ ، ص٢٤٥ .

الحياة العلمية والثقافية :

درج بعض الدارسين المحدثين على وصف العصر المملوكي بتخلف الحركة العلمية وانحطاط مستوى الحياة الأدبية والثقافية ، وقد أغفلوا ذِكر المفكرين والأدباء التي تُباهي بأسمائهم كتب الأعلام والتراجم، وتجاهلوا ما أنتجوه من موسوعات علمية وأدبية تشغل حيزاً كبيراً في مكتبة التراث العربي والإسلامي ، وقد أرجع الكثير منهم هذا التخلف والانحطاط إلى عدة أسباب أهمها - في رأيهم - جهل الأمراء والسلاطين المماليك باللغة العربية ، وعدم تشجيعهم العلماء والأدباء([1]).

وهذا الموقف يجافي الواقع والحقيقة ، فكيف يجهل السلاطين اللغة العربية ويبقونها لغة رسمية للدولة ؟! ، وقد أشرنا فيما سبق إلى اهتمام المماليك بالتعليم ، وأنهم أنشأوا مدارس خاصة لأبناء جلدتهم ، وأنهم انتهجوا نهجاً صارماً لتنشئتهم على اللغة العربية وعلومها ، وعلوم القرآن والسنة ، ثم العلوم العسكرية وفنون القتال ، كما أشرنا إلى أسماء بعض العلماء المماليك البارزين مثل ابن إياس وابن تغري بردي وابن دقماق وابن شاهين ..**([2]) .**

كذلك اهتم السلاطين بإتاحة فرصة التعليم المجاني للراغبين من كل فئات المجتمع ، حيث ساروا على سنة الأيوبيين في رعاية العلماء وطلاب العلم وتنشيط الحركة الفكرية ، وفاقوهم في بناء المدارس ودور العلم .

فعلى صعيد رعاية العلماء فإن المكانة الاجتماعية التي تبوأها العلماء ، وما وهبهم إياه السلاطين من إقطاعات زراعية ، وما أغدقوا عليهم من أموال ، لم تقتصر على علماء مصر والشام المواطنين ، بل امتدت هذه الرعاية لتشمل العلماء المهاجرين من بلدان المغرب ، والفارين من وجه زحف الفرنجة على الأندلس ، وكذلك الناجين من الطوفان المغولي الذي دمر بغداد وبعض مدن المشرق الإسلامي ، حيث أحسن المماليك استقبالهم ، وأحاطوهم بالرعاية ، وأجروا عليهم الأرزاق ، ومن هؤلاء العلماء نذكر - على سبيل المثال - علي بن موسى المعروف بابن سعيد المغربي ، صاحب كتاب المُغرب في حلى المغرب ، وعلي بن مؤمن النحوي الحضرمي الأشبيلي المشهور بابن عصفور ، حامل لواء العربية بالأندلس الذي أقام في حلب ، وعبد الرحمن بن خلدون ، وشمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان صاحب كتاب وفيات الأعيان ، ومحمد جمال الدين بن مالك صاحب الألفية المشهورة في النحو ، وغيرهم كثير ..([3]).

اهتم الأمراء والسلاطين بإنشاء المدارس وإلحاق المراكز التعليمية بالمساجد والزوايا والخوانق والربط ، وقد عبَّر بعض أهل ذلك الزمان عن دهشتهم من كثرة عدد المدارس ، من ذلك قول ابن بطوطة : "لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها"([4]) ، وكذلك قول القلقشندي : "إن هؤلاء السلاطين بنوا من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها"([5]) . ومما قاله الشعراء في تقريظ بعض تلك المدارس نذكر قول البوصيري في مدرسة شيدها السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٤ هجرية([6]) :

وَمَدْرَسَـــةٌ وَدَّ الخَوَرْنَـــقُ أنَّـــهُ ... لَـدَيْها حَظِيـرٌ ، والـسَّدِيرُ غَـدِيرُ
مَدِيْنَـــةُ عِلْـمٍ والمَـدَارِسُ حَوْلَهَـا ... قُـرَىً ، أوْ نُجُـومٌ بَـدْرُهُنَّ مُنِيـرُ

([1]) انظر مثلاً : - أحمد صادق الجمال : الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي ، طبعة الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٣٥ . - قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، ص ١٧٠ . – محمود الربداوي : ابن حجة الحموي شاعراً وناقداً ، طبعة دار قتيبة ١٩٨٢م ، ص ٣٤ . ويكفي في هذا المضمار النظر إلى المناهج الدراسية في البلدان العربية التي تبرر عدم تدريس هذا العصر بأنه عصر ركود وانحطاط .

([2]) انظر حديث المقريزي عن تعليم المماليك في كتابه الخطط ٣٧٢/٣ .

([3]) للاستزادة راجع : محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ١٠٦/١-١٠٨ .

([4]) عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، طبعة دار التراث ، بيروت ١٩٦٨م ، ص ٧٠ .

([5]) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، طبعة دار الكتب المصرية ١٩١٣ ، ٣٦٧/٣ .

([6]) البوصيري شاهد على العصر المملوكي ٦٥ .

تَبَـدّتْ فَـأَخْفَى الظَّاهِرِيَّـةَ نُورُهـا وَلَـيسَ بِظُهْـرٍ لِلنُّجُـومِ ظُهـورُ
بِنـاءٌ كَـأَنَّ النَّحْـلَ هَنْـدَسَ شَـكْلَهُ وَلانَـتْ لَـهُ كالـشَّمْعِ منـه صُـخُورُ

وقول ابن العطار في مدرسة أنشأها الظاهر برقوق سنة ٧٨٦ هجرية([1]):

قَدْ أَنْشأَ الظَّـاهِرُ السلطانُ مَدْرَسَـةً فَاقَتْ عَلَى إرم مَـعَ سُرعَةِ العَمَلِ
يَكْفِـي الخَلِيْلِـي أَنْ جَـاءَتْ لِخِدْمَتِـهِ شُمُّ الجِّبَـالِ لَهَـا تَـأْتِي عَلَـى عَجَلِ

وكما ألحقوا بتلك المدارس المكتبات الضخمة ، كذلك دشنوا المكتبات العامة والخاصة، وخزائن الكتب في شتى مدن مصر والشام ، نذكر منها مكتبة قلعة الجبل ، وخزانة جامع الحاكم بأمر الله ، وخزانة جامع المؤيد ..([2]) .

وكانت الكتاتيب المنتشرة في النجوع والقرى والمدن تُعِدُّ النشء للالتحاق بتلك المدارس والمراكز التعليمية ، تعلمهم القراءة والكتابة ، وتزودهم ببعض المعارف الأولية ، وتحفظهم القرآن الكريم([3]).

كذلك اعتنوا بالطلاب ، ووفروا لهم سكناً قريباً من المدارس والمراكز التعليمية ، ووفروا لهم الطعام والكساء ، وأوقفوا الأراضي الزراعية والعقارات للإنفاق عليهم وعلى مراكز التعليم ومرافقها المتنوعة([4]) .

وهكذا فقد تهيأت الأسباب لدولة المماليك في مصر والشام لكي تضحي قبلة العرب والمسلمين الثقافية ، وملاذهم الآمن ، بعد استيلاء الفرنجة على الأندلس والمغول على بغداد ، وتدمير المكتبات وإتلاف معظم محتوياتها من كتب وموسوعات ، كما تهيأت أسباب ازدهار حركة التأليف والإبداع في جميع المجالات العلمية والأدبية ، ليباهي العصر المملوكي جميع عصور العربية بتراثه الموسوعي في جميع فروع المعرفة([5]) .

وجاء **الحكم العثماني** فدخلت باقي الأقطار العربية تحت عباءة العثمانيين ، وأبقى السلاطين العثمانيون الحُكامَ المماليك على حالهم في حكم مدن الشام ومصر ، كما أبقوا معظم حكام الدول العربية – التي لم تكن تحت نفوذ المماليك - في أماكنهم ، وعينوا فوقهم حكاماً عثمانيين يمثلونهم في حكم هذه الدول.

وكان السلاطين في القسطنطينية – العاصمة السياسية للعثمانيين – يديرون الشئون السياسية العامة للبلاد العربية ، وكان الحكام المماليك وحكام الدول الأخرى هم الحكام الحقيقيون لبلادهم ، وكان للباشاوات السلطة الاسمية فقط ، لذلك نعمت جميع هذه البلاد بقدر كبير من الاستقلال الفكري والثقافي ، وفاقت سلطة العلماء ورجال الدين سلطة الباشا أحياناً([6]) .

ولم يمنع تربع اللغة التركية على عرش الدولة العثمانية في القسطنطينية سيادة اللغة العربية في بلادها ، فهي اللغة الرسمية في جميع الدول العربية ، الأمر الذي يبرر قولنا كانت الحياة الفكرية والثقافية في الوطن العربي زمن العثمانيين امتداداً طبيعياً للعصر المملوكي وعصور العربية التي سبقته .

وبالرغم مما ذكره المؤرخون عن انتشار اللغتين الفارسية والتركية في العصر العثماني ، وجهل السلاطين والحكام العثمانيين باللغة العربية ، فإن الكثير من الأتراك والفرس تعلموا العربية ، لأنها لغة الدين والثقافة الإسلامية ، وقد أشار المحبي في كتابه خلاصة الأثر إلى العديد منهم ، فمثلاً ذكر قاضي العساكر محمد بن أحمد بن مصطفى بن خليل المُلقب "طاشكبري زاده" ، وذكر مكانة والده العلمية فقال في ترجمته : "فرد الدهر المُجْمَعُ على

([1]) محمود الربداوي : ابن حجة الحموي شاعراً وناقداً ، ٣٥ .
([2]) وقد احتوت بعض هذه المكتبات أكثر من مئة ألف كتاب . للاستزادة راجع : الأدب في العصر المملوكي ١٠٨/١ وما بعدها .
([3]) راجع : عبد الفتاح سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٤٠ .
([4]) المقريزي : الخطط ٢١٣/٤ .
([5]) حسن المحاضرة ١٠٢/٢ .
([6]) انظر : المحبي : خلاصة الأثر ١١٠/٢ – ١١١ .

فضله وبراعته ، وكان في العلم طوداً شامخاً ، لم يُرَ نظيره في طلاقة العبارة والتضلع من العربية ، قال النجم الغزي في ترجمته لم أرَ روميا أفصح منه باللسان العربي ... أخذ عن والده العالم المشهور صاحب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، وعن شيخ الإسلام أبي السعود العمادي ، ودرس بمدارس قسطنطينية ، ثم صار قاضياً بحلب ، ونقل منها إلى دمشق ، فدخلها في أوائل المحرّم سنة خمس بعد الألف ، وأقبل على أهلها ، وعاملهم بالإكرام التام حتى سحر عقول علمائها"([1]) .

ومن العلماء الكثيرين الذين ترجم لهم المحبي نذكر أيضاً عبد الرحمن بن حسام الدين المعروف بحسام زاده الرومي ، الذي يقول عنه : "مفتي الدولة العثمانية ، وواحد الدهر الذي باهت بفضله الأيام ، وتاهت بمعارفه الأزمان ، وكان عالماً متبحراً ، كثير الإحاطة بمواد التفسير والعربية ، جم الفائدة .."([2]) .

ليس ذلك فحسب بل وجدنا العديد من السلاطين والحكام يتقنون العربية ، ويقرضون الشعر ، من ذلك قول المحبي في ترجمته للسلطان أحمد بن محمد بن مراد([3]) : "كان سلطاناً عظيم القدر ، جميل الذكر ، محباً للعلماء وآل البيت ، متمسكاً بالسنة النبوية ، حسن الاعتقاد، معاشراً لأرباب الفضائل ، سمح الكف جواداً ، لا تزال إحساناته للفقراء واصلة ، وعطاياه لأرباب ذوي الاستحقاق مترادفة ، وكان مائلاً إلى الأدب والمحاضرات ، وله شعر بالتركية .. ومما يروى له من الشعر العربي قوله ، وأجاد :

ظبـيٌ يَـصُولُ وَلا اتِّـصَالَ إلَيْـه ... جَـرَحَ الفُـؤْادَ بِـصَارِمَيّ لَحْظَيْـه
مَـا قَـامَ مُعْتَـدِلاً وَهَـزَّ قَوَامَـهُ ... إلاَّ تَهَتَّكَـتْ الـسُتُوْرُ عَلَيْـه
يَـسْقِي المُدامـة مِـنْ سُـلافَةِ رِيْقِـهِ ... وَيَخُـصُنَا بِـالْغُنْجِ مِـنْ جِفْنَيْـه
عَيْنَـاهُ نَرْجِـسُنَا ، وآسَ عِـذَارِهِ ... رَيْحَانُنَـا ، والـوَرْدُ مِنْ خَدَّيْـه"([4])

كذلك السلطان عبد الحميد الأول بن السلطان أحمد خان الذي اشتهر بقصيدته النبوية التي نُقشت على الحجرة النبوية الشريفة سنة ١١٩١ هجرية ، ومنها قوله([5]) :

يَا سَيِّدي يَا رَسُولَ اللهِ خُذْ بِيَدِي ... مَا لِي سِوَاكَ وَلا أَلْوِي عَلَى أَحَدِ
فَأَنْتَ نُورُ الهُدَى فِي كُلِّ كَائِنَةٍ ... وَأَنْتَ سِرُّ النَّدى يَا خَيْرَ مُعْتَمَدِ
وَأَنْتَ حَقّاً غِيَاثُ الخَلْقِ أَجْمَعِهم ... وَأَنْتَ هَادي الوَرَى للهِ ذي السَّدَدِ
يَا مَنْ يَقُومُ مَقَامَ الحَمْدِ مُنْفَرِداً ... لِلْوَاحِدِ الفَرْدِ لَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَلِدِ

وكما تعلم الفرس والأتراك اللغة العربية ، وأفادوا من العلوم والمعارف العربية والإسلامية ، كذلك أطل العديد من العلماء والأدباء على الثقافتين الفارسية والتركية ، حيث أضحت إجادة اللغتين إضافة إلى العربية شرطاً من شروط الوصول إلى المناصب الرفيعة في الدولة ، وقد أشار المحبي في تراجمه إلى الكثير من العلماء والأدباء الذين أجادوا اللغتين ، وأثروا من ثقافة اللغتين ، كابن النقيب([6]) ، وبدر الدين البوريني الذي تعلم "اللغة الفارسية حتى صار يتكلم بها كأنه أعجمي" ، "ثم تعلم في آخر حاله التركية ، وكان في الفارسية أبرع ، ونظم ونثر" ، وفي إتقانه للغة الفارسية قال([7]) :

تَعَلَّمْـتُ لَفْـظَ الأَعْجَمِـيّ وإنَّنِـي ... مِـنَ العـربِ العُرَبَـاءِ لا أَتَكَـتَّمُ
وَمَا كانَ قَصْدِي غَيْرَ صَوْنَ حَدِيْثِكُم ... إذا صِـرْتُ مِـن شَـوْقِي بِـهِ أَتَـرَنَّمُ

([1]) خلاصة الأثر ٣٥٦/٣ .
([2]) السابق ٣٥١/٢ – ٣٥٢ .
([3]) هو السلطان أحمد بن محمد بن مراد ، كان سلطاناً عظيم القدر جميل الذكر ، مُحباً للعلماء وآل البيت ، متمسكاً بالسنة النبوية .. هذا ولد سنة ٩٩٩ وتوفي سنة ١٠٢٦ هجرية . راجع ترجمته في : خلاصة الأثر ٢٨٤/١ – ٢٩٢ .
([4]) خلاصة الأثر ٢٨٤/١ – ٢٨٥ .
([5]) انظر القصيدة كاملة في : عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربي - العصر العثماني ، ص ٣٨ – ٣٩ .
([6]) هو عبد الرحمن بن محمد بن كمال الدين محمد الحسيني ، أديب دمشقي ، له كتاب بعنوان "الحدائق والفرق" ، وله ديوان شعر مطبوع ، ولد سنة ١٠٤٨ هـ ، وتوفي سنة ١٠٨١ هجرية . راجع ترجمته في: خلاصة الأثر ٢/ ٣٩٠ – ٤٠٤ .
([7]) خلاصة الأثر ٥٢/٢ .

وإنْ كُنْـتُ بَـيْنَ المُعْجِمِـيْنَ فَمُعْـرِبٌ وَإنْ كُنْـتُ بَـيْنَ المُعْـرِبِيْنَ فَمُعْجِـمُ
فَأغْـدوا بِأشْـوَاقِي إلَـيْكُم مُتَرْجِمـاً وَسِرُّكم فـي خَـاطِرِي لَـيْسَ يُعْلَـمُ

وقد أطل العرب من خلال معرفتهم باللغة الفارسية على ثقافة آسيا الوسطى وتراثها الفكري ، كما انفتح الفرس والأتراك على الثقافة العربية الإسلامية ، ونهلوا من ينابيعها ، وقد رأينا الألفاظ والعبارات العربية تقتحم اللغتين ، والأتراك يكتبون بالحروف العربية([1]) .

كما بث تنوع البيئات الثقافية في الممالك العثمانية دماءً جديدة في الحياة الأدبية والفكرية ، وأوجد جيلاً من الأدباء والعلماء من أبناء القوميات غير العربية ، واستمر تدفق حركة التأليف والإبداع ، وعجَّت المكتبة العربية الإسلامية بمئات الكتب والموسوعات([2]) .

المعطى الدلالي لفن المديح في العصرين :

المـديح هـو حُسُن الثنـاء ، ووصـف النـاس بـالأخلاق الحميـدة ، والإشـادة بفـضائلهم وأعمالهم المجيدة ، وقد عرف الشاعر العربـي منذ جاهليتـه هذا الفن ، وعبر فـي شعره عمَا أعجبه من صفات بعض النـاس وأعمـالهم ، وإذا كـان الغالـب فـي شعر ذلك العصر المدح عن قناعة باستحقاق الممدوح الثناء ، وكان الشعر نابعاً من قرارة نفس الشاعر ، يمدح الرجل بما فيه من صفات ، لا يتزلف لكي يتكسب بشعره أو ينال العطايا ، فإن المديح المبنـي على الريـاء والتزلف للممدوح بما ليس فيه من صفات كان موجوداً بقدر أقل([3]) .

وقد نهى النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن الرياء والكذب ، وحثَّ علـى التصدي للمتزلفين من الشعراء فـي قولـه : "إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا فـي وجـوههم التـراب"([4]) ، وقـال صـلى الله عليه وسلم في توضيح موقف الإسلام من الشعر : "إنَّما الشِّعرُ كلامٌ مُؤَلَّفٌ فما وافقَ الحقَّ منه فهو حَسَنٌ ، وما لم يوافِق الحقَّ منه فلا خيرَ فيه"([5]) .

ومنذ العصر الأموي انتشرت ظاهرة التكسب بالشعر ، ورفع الشعراء قدر الوضيع ، وجعلوا الجبان شجاعاً ، والبخيل كريماً ، وذلك مقابل ضريبة يدفعها الممدوح للشاعر وإلاّ انقلب عليه وهجاه بما هو فيه من صفات وأكثر .

وأظن أن الشعراء قالوا في المديح أكثر مما قالوا في باقي فنون الشعر العربي ، وقد سار شعر المديح الصادق في ظل شعر التكسب حتى جاء العصر المملوكي ، فاشتكى الشعراء من كساد سوق الشعر ، لأنه لم يَعُد حرفة يُرْتَزَقُ منها ، من ذلك قول أبي الحسين الجزار([6]) :

لاَ تَلُمْنِـي يَـا سَـيِّدِي شَـرَفَ الدِّيْـ ـــن عَلَـــى أنْ رَأيْتَنِـــي قَـــصَّابَا
كَيْفَ لا أعْشَقُ الجِزَارَةَ مَـا عِشْـ ـــتُ حَيَـــاتِي وَأَرْفُـــضُ الآدَابَـــا
وَبِهَـــا صَـــارَتْ الكِـــلابُ تَرْجِيْـــ ـــنِي وَبِالـشِّعْرِ كُنْـتُ أرْجـو الكِلابَـا

([1]) انظر : تاريخ الأدب العربي – العصر العثماني ٤٠ .

([2]) تكفي مراجعة كتاب المحبي "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" ، أو كتاب شهاب الدين الخفاجي "ريحانة الألبا وزهرة الحيا الدنيا" ، لتخيل حجم حركة التأليف ، وعدد جيش الأدباء والعلماء في ذلك العصر .

([3]) راجع : درويش الجندي : ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده ، طبعة دار نهضة مصر ١٩٦٩م ، ص ٤٣ – ٦٤.

([4]) على بن أبي بكر الهيثمي : مجمع الزوائد ، طبعة دار الريان للتراث ، القاهرة ١٤٠٧ هـ ، ١١٧/٨ .

([5]) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد قرقزان ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٨٨م ، ٨٥/١ .

([6]) هو يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن علي ، جمال الدين أبو الحسين الجزار ، ولد في بالفسطاط سنة ٦٠٣ هجرية ، وقد عمل في الجزارة مهنة والده بعد أن عجز عن التكسب بشعره ، توفي سنة ٦٧٩ هجرية . انظر ترجمته في : محمد بن أحمد الكتبي : فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس طبعة دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٣م ، ٢٧٧/٤ – ٢٩٣ .

وكذلك ما يشتمل عليه قول البوصيري([1]) :

لاَ تَكِلْنِـــي إلـــى سِـــوَاكَ فَأَخْيَـــا رُ زَمَـــانِي لا يَمْنَحُـــوْنَ خِيَـــارَه
وَوُجُـــوهُ الْقِـــصَّادِ فِيْـــهِ حَدِيْـــدٌ وَقُلُـــوْبُ الأَجْـــوَادِ فِيْـــهِ حِجَـــارَه

وقريب من هذا المعنى قول عفيف الدين علي بن عدلان([2]) :

لا تَعْجَـــبَنَّ إذا مَـــا فَاتَـــكَ المَطْلَـــبْ وَعَوِّدِ النَّفْسَ أنْ تَشْقَى وَأنْ تَتْعَبْ
إنْ دَامَ ذَا الفَقرُ فـي الدُّنيا فَلاَ تَعْجَبْ مَاتَ الكِرَامُ وَمَا فِيْهم فَتىً أعْقَبْ

وقول ابن نباته المصري([3]) :

لا عَـارَ فِـي أدَبِـي إنْ لَـمْ يَنَـلْ رُتَبـاً وإنَّما العَارُ فِي دَهْرِي وَفِي بَلَدِي
هَـذا كَلامِـي وَذَا حَظِّـي فَيـا عَجَبـاً مِنِّـــي لِثَـــرْوَةِ لَفْـــظٍ وَافْتِقَـــارِ يَـــدِ

أضحى الشعر في العصر المملوكي تعبيراً صادقاً عن أحاسيس الشاعر تجاه ممدوحه، وراجت سوق المديح الذي يُمجِّد البطولة والجهاد في سبيل الله ، وتغنَّى الشعراء بانتصارات قادة المسلمين على الصليبيين والتتار ، وخلَّدوا صفاتهم الحميدة وأعمالهم الخيرة ، من ذلك ابتهاج المسلمين بانتصار سيف الدين قطز على التتار في عين جالوت سنة ٦٥٨ هجرية ، كما نرى في قول شرف الدين الأنصاري([4]) :

رُعْتَ العِدا فَضَمِنْتَ ثَلَّ عروشِها وَلَقَيْتَهـــا فَأَخَـــذْتَ ثَـــلَّ جيوشِـــهَا
فُقْتَ الملـوكَ بِبَـذْلِ مَـا تَحْوِيْـه إذْ خَتَمَـــتْ خَزَائِنَهـــا علـــى مَنْقُوشِـــهَا
فَطَوَيْتَ عَنْ مِصْرَ فَسِيْحَ مَرَاحِلٍ مَـــا بَـــيْنَ بِرْكَتِهَـــا وبَـــيْنَ عَرِيْـــشِهَا
حَتَّـى حَفِظْتَ علـى العِبَـادِ بِلادهَـا مِن رُوْمِهَا الأَقْصَى إلى أَحْبُوشِهَا
فَرَشَتْ حمَـاه لِـوَطءِ نَعْلِكَ خَدَّهَا فَوَطِئْتَ عَيْنَ الشَّمْسِ مِنْ مَفْرُوشِهَا

وكذلك قول شهاب الدين محمود الحلبي([5]) في مدح السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس والإشادة بانتصاره على التتار والروم الذين أعادوا تجمعهم عند نهر جيحان([6]) :

سِرْ حَيْثُ شِئْتَ لَكَ المُهَيْمِنُ جَارُ وَاحكُـمْ فَطَـوْعُ مُـرَادِكَ الأَقْـدَارُ
لَـمْ يَبْـقَ للـدِّيْنِ الـذي أَظْهَرتَـهُ يَـا رُكْنَـهُ عِنْـدَ الأَعَـادِي ثَـارُ
لَمَّـا تَرَاقَصَتْ الـرُّؤوسُ وحَرَّكَتْ مِـنْ مُطْرِبَـات قِـسِيِّكَ الأَوْتَـارُ
خُضْتَ الفُراتَ بِسَابِحٍ أَقْصَى مَنَى هُـوْجَ الـصَّبَا مِـن نَعْلِـهِ آثَـارُ
حَمَلَتْكَ أَمْوَاجُ الفُرَاتِ ومَنْ رَأى بَحْـراً سِـوَاكَ تَقِلُّـهُ الأَنْهَـارُ
وَتَقَطَّعَـتْ فِرَقـاً وَلَـمْ يَـكُ طَوْدَهَـا إذْ ذَاكَ إلاَّ جَيْـشُكَ الجَـرَّارُ
رَشَّتْ دِمَـاؤُهُم الـصَعِيْدَ فَلَـمْ يَطِرْ مِـنْهم عَلَـى الجَّيْشِ السَّعِيْدِ غُبَـارُ
شَكَرَتْ مَسَاعِيْكَ المَعَاقِلُ والوَرَى والتُّـرْبُ والآسَـادُ والأَطْيَـارُ
هَـذِي مَنَعْـتَ وهَـؤلاءِ حَمَيْـتَهُم وَسَـقَيْتَ تِلْـكَ وَعَـمَّ ذَا الإِيْـسَارُ
فَلأَمْـلأَنَّ الـدَّهْرَ فِيْـكَ مَـدَائِحاً تَبْقَـى بَقِيـتَ وتَـذهَبُ الأَعْـصارُ

([1]) هو أبو عبد الله ، شرف الدين ، محمد بن سعيد بن حماد ، ولد في قرية دلاص ببني سويف بمصر سنة ٦٠٨ هـ ، وتوفي في القاهرة سنة ٦٩٥ هجرية . راجع ترجمته في كتابنا : البوصيري شاهد على العصر المملوكي ، ص ٧ وما بعدها .

([2]) هو عفيف الدين أبو الحسن عليّ بن عدلان بن حماد بن عليّ الموصليّ النحوي المترجم ، مات بمصر سنة ٦٦٦هجرية . النجوم الزاهرة ١٩٧/٧ .

([3]) هو الشاعر والناثر المشهور أبو بكر ، جمال الدين ، محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين محمد الجذامي الفارقي ، يعود أصله إلى قبيلة جذام العربية ، أقام أجداده في الشام ، وقد اشتهر منهم عبد الرحيم بن نباتة ، الخطيب الذي ذاع صيته في عصر سيف الدولة الحمداني . ولد في القاهرة سنة ٦٨٦ وتوفي فيها سنة ٧٦٨ هجرية .

([4]) قال القصيدة بحماة حينما وصلها قطز منتصراً . تاريخ ابن الوردي ٢٠١/٢ . والشاعر هو شيخ شيوخ حماة ، شرف الدين ، عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن بن محمد بن منصور بن خلف الأنصاري الدمشقي ، المعروف بابن الرّفا ، ولد سنة ٥٨٦ ، وتوفي ودفن بحماة سنة ٦٦٢ هجرية . راجع ترجمته في : النجوم الزاهرة ٢٣١/٧ . وفوات الوفيات ٣٥٤/٢ - ٣٦٣.

([5]) هو شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحلبي الدمشقي ، ولد سنة ٦٤٤ هـ ، تولى ديوان الإنشاء بعد موت محي الدين بن عبد الظاهر ، وتوفي سنة ٧٢٥ هجرية .

([6]) النجوم الزاهرة ١٤٣/٧ - ١٤٤ . وانظر أيضاً : محمد بن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ٢٤٠/١ .

لقد اِلتفَّ الشعراء حول أبطال المسلمين الذين خلَّصوا البلاد والعباد من شرور أعداء الدين ، التتار والصليبيين ، وكان الشاعر شهاب الدين محمود أحد الذين لهجوا بذكر انتصارات المماليك في الشام ، يخلِّد فتح السلطان المنصور قلاوون الألفي حصن المرقب وقضى على مَن فيه من الصليبيين سنة أربع وثمانين وستمائة هجرية ، ويمتدح قوة عريكة هذا السلطان ، وقوة إيمانه التي تجلّت في ادخار الله عزّ وجلّ شرف فتح هذا الحصن له دون غيره من السلاطين والأبطال الأقوياء ، من ذلك قوله([1]) :

اللهُ أكبَـرُ هَـذا النَّـصْرُ والظَّفَـرُ ... هَذَا هُوَ الفَتْحُ لا مَا تَزْعُمُ السِّيَرُ
هَذَا الَّذِي كَنَتْ الآمَالُ إِنْ طَمَحَتْ ... إِلَى الكَوَاكِبِ تَرْجُوهُ وَتَنْتَظِرُ
فَانْهَضْ وَسِرْ وَامْلِكْ الدُّنْيَا فَقَدْ نَحَلَتْ ... شَوْقاً مَنَابِرُهَا وَارْتَاحَتْ السُّرُرُ
كَمْ رَامَ قَبْلَكَ هَذا الحِصْنَ مِن مَلِكٍ ... فَطَالَ عَنْهُ وَمَا فِي بَاعِهِ قِصَرُ
وَكَيْفَ تَمْنَحُه الأَيَّامُ مَمْلَكَةً ... كَانَتْ لِدَوْلَتِكَ الغَرَّاءِ تُدَّخَرُ
وَكَيْفَ يَسْمو إِلَيْهَا مَنْ تَأَخَّرَ عَن ... إِسْعَادِهِ مُنْجِدَاك القَدْرُ وَالقَدَرُ

وفي مدح السلطان قلاوون – أيضاً – بعد فتح طرابلس سنة تسع وثمانين وستمائة للهجرة يتوجه الشهاب محمود إلى الله عزَّ وجلَّ بالشكر على نعمة النصر والتأييد التي خص السلطان بها ، ويتضرع إليه أن يُديم عليه النصر والتأييد([2]) :

عَلَيْنَا لِمَنْ أَوْلاكَ نِعْمَتَهُ الشُّكْرُ ... لأَنَّكَ للإِسلامِ يا سَيْفَهُ ذُخْرُ
وَمِنَّا لَكَ الإِخْلاصُ في صَالِحِ الدُّعا ... إِلى مَنْ لَهُ فِي أَمْرِ نُصْرَتِكَ الأَمْرُ
وَللهِ في إِعْلاءِ مُلْكِكَ فِي الوَرَى ... مُرَادٌ وَفِي التَّأْيِيْدِ يَوْمَ الوَغَى سِرُّ
أَلا هَكَذا يا وَارِثَ المُلْكِ فَلْيَكُنْ ... جِهَادُ العِدا لا ما تَوَالَى بِهِ الدَّهْرُ

واختصاراً لا نكاد نجد سلطاناً أو أميراً أو قائداً من قادة المماليك الذين تصدوا للتتار والصليبيين إلا حاز إعجاب الشعراء ، وحظي بما خلّد ذكره من المدح الصادق ، ليس ذلك فحسب بل امتدح الشعراء العديد من رجال الدولة المملوكية في مصر والشام لحُسن خلقهم وتقواهم ، وأشادوا بعدلهم ، وحُسن إدارتهم ، وسهرهم على راحة مواطنيهم ، من ذلك ما نراه في قول البوصيري([3]) :

فَطَهَّرَ وَجْهَ الأرضِ مِنْ كُلِّ فَاسِدٍ ... وَمَا خِلْتُهُ مِنْ قَبْلِهِ يَتَطَهَّرُ
وَمَهَّدَهُ لِلسَّالِكِيْنَ مِنَ الأَذَى ... فَلَيْسَ بِهِ الأَعْمَى إِذا سَارَ يَعْثُرُ
فَشَرِّقْ وَغَرِّبْ فِي البِلادِ فَكَمْ لَهُ ... بِهَا عَابِرٌ يُثْنِي عَلَيْهِ وَيَعْبُرُ
وَمَا كُلُّ وَالٍ مِثْلُهُ فِيْهِ يَقْظَةٌ ... وَلاَ قَلْبُهُ بِاللهِ قَلْبٌ مُنَوَّرُ
أَنَامِ الرَّعَايَا فِي أَمانٍ وَطَرْفُهُ ... لِمَا فِيْهِ إِصْلاَحُ الرَّعِيَّةِ يَسْهَرُ
فَلاَ الخَوْفُ مِنْ خَوْفٍ أَلَمَّ بِأَرْضِهِ ... وَلاَ الشرُّ فِيْهَا بِالخَوَاطِرِ يَخْطُرُ

ويمدح عمر بن الوردي([4]) المماليك عامة ، ويشير إلى استقرار حال البلاد في عصرهم ، حيث يصفهم بالسعد والعدل بعد أن شبههم بالملح الذي لا يستغني الناس عنه ، مبيناً أنه لا يعرف فضلهم إلا مَن جَرَّب ظلم المغول ، ويدعو لهم بطول البقاء([5]) :

التُّركُ ملحُ الأرضِ في عَصْرِنا ... والفلكُ الدَّائِرُ في سَعدِهِمْ
تعرفُ مَن يعرفُ مِقدَارَهُمْ ... مَنْ ذاقَ جَوْرَ المُغْلِ([6]) مِنْ بَعدِهِمْ
اللهُ لاَ يُوحشَ مِنْ أُنسِهِمْ ... فَجَورُهُمْ أَهْوَنُ مِنْ فَقْدِهِمْ

([1]) النجوم الزاهرة ٢٦٩/٧ – ٢٧٠ .
([2]) السابق ٢٧٥/٧ .
([3]) ديوان البوصيري ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، الطبعة الثانية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٧٣م ، ص ١٦٠ .
([4]) هو زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس الوردي ، المعروف بابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ هجرية ، صاحب كتاب تاريخ ابن الوردي . انظر ترجمته في : محمد بن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ١٥٧/٣ – ١٦٠ .
([5]) ديوان ابن الوردي ، مطبعة الجوائب ، القسطنطينية ١٣٠٠هـ ، ص ٢٦٦ .
([6]) المغل : المغول .

كذلك حاز العديد من رجال الدين والعلماء والأدباء إعجاب الشعراء فامتدحوهم ، وفي قصائد طوال عددوا مناقبهم وصفاتهم ، وإن كان هذا الإعجاب لا يخلو أحياناً من رجاء أو طمع في عطاء ، فإنه يشتمل غالباً على الأحاسيس الصادقة ، والحب الذي لا ينقلب كرهاً وهجاءً إذا عزّ العطاء ، كما هو معروف عن بعض شعراء التكسب في العصور السابقة ، ومعاني هذا المدح متنوعة ، ونماذجه كثيرة جداً ، نذكر منها قول الشاعر ابن مليك الحموي([1]) في مدح قاضي القضاة شهاب الدين أبو العباس المعروف بابن فرفور([2]):

ولله سِرٌّ في عُلاكَ فَمَا عَسى ... يَقُولُ حَسودٌ أو عَدوٌّ يُجَاهِرُ
وأضْحَتْ دِمَشْقُ الشَّامِ بالحُسْنِ جَنَّةً ... عَلَيْهَا جَمَالٌ مِنْكَ بَاهٍ وبَاهِرُ
وَحَاكَتْ لَها أيْدي السَّحَابُ مَطَارِفاً ... مُوشَّعَةً قَدْ دَبَّجَتْهَا الأزاهِرُ
وَرَوْضُ الهَنَا بالرِّق نَفَّرَ طَيْرُهُ ... وغَنَّى على العِيدان والرِّيْحُ زَامِرُ
وجَامِعُها بالحُسْنِ أصْبَحَ مُفْرَداً ... وقَدْ أعْرَبَتْ بالوَصْفِ عَنْهُ الضَّمَائِرُ
وصَارَ عَلَيْهِ مِنْ شِعَارِكَ رَوْنَقٌ ... وفِيْهِ لَقَدْ أضْحَتْ تُقَامُ الشَّعَائِرُ
ومنبَرُهُ لمَّا بِهِ قُمْتَ خَاطِباً ... تَمَنَّتْ بِأنْ تَسْعَى إلَيْهِ المَنَابِرُ
فَهذا هو البَحْرُ الذي عن نَوَالِهِ ... مَوَارِدُهُ قَدْ أعْرَبَتْ والمَصَادِرُ
أخُو الجودِ مِنْ كَفَيْهِ يُستَمْطَرُ النَّدى ... وَمَا هو إلا الغَيْثُ بالجُودِ مَاطِرُ

لقد راعى الشاعر الصفات التي تناسب مقام الممدوح ومكانته الاجتماعية والدينية ، فهو القاضي الذي تزهو به دمشق ، والخطيب التقي المفوه الذي يباهي به مسجده ، وتتوق إليه المنابر ، ثم لا ينسى الشاعر التنويه عن كرم ممدوحه وسخائه .

كذلك ترك شعراء العصر المملوكي كمًّا هائلاً من شعر الثناء على العلماء والأدباء ، ومدحوهم بغزارة علمهم وبراعة فنهم ، وما استحبوا من صفاتهم ، وفي هذا المقام نذكر بيتين مما قيل في مدح أبي العباس أحمد بن خلّكان([3]) من شعر عمر بن إسماعيل الفارقي مبتهجاً بعودة ابن خلكان إلى قضاء دمشق ، قال([4]) :

أنْتَ في الشَّامِ مِثْلُ يُوْسُف فِي مِصْـ ... ـرٍ وَعِنْدِي أنَّ الكِرَامَ جِنَاسُ
وَلِكُلٍّ سَبْعٌ شِدَادٌ وَبَعْدَ السَّبْـ ... ـعِ عَامٌ فِيْهِ يُغَاثُ النَّاسُ

وقد شاركت المرأة في فن المديح كما شاركت في غيره من فنون الشعر ، وفي هذا المقام نورد بعض ما قالته عائشة الباعونية([5]) في مدح شيخ الأدباء السيد الشريف عبد الرحيم العباسي القاهري([6]) :

إمَامٌ حَوَى مِنْ كُلِّ عِلْمٍ لُبَابَهُ ... فَحَجَّ لِعَالِي بَابِهِ كُلُّ ذِي قَدْرِ
وَأصْبَحَ فِيْ بَحْرِ الحَقَائِقِ غَائِصاً ... وَمُسْتَخْرِجاً ما شَاءَ مِنْ ذَلِكَ البَحْرِ

([1]) هو علاء الدين ، علي بن محمد بن علي بن عبد الله المعروف بابن مليك الحموي ، ولد بحماة سنة ٨٤٠ وتوفي ودفن بدمشق سنة ٩١٧ هجرية . انظر ترجمته في : نجم الدين محمد بن محمد الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، تحقيق جبرائيل سليمان حبور ، الطبعة الثانية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٩م ، ٢٦١/١ .

([2]) ديوان ابن مليك الحموي ، المطبعة العلمية ، بيروت ١٣١٢هـ ، ص ٦٢ .

([3]) هو قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس ، وقال صاحب الكوكب الثابت هو أبو بكر ، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلّكان ، ولد بإربل سنة ٦٠٨ هجرية في بيت معروف بالفقه والمناصب الدينية ، كان إماماً عالماً فقيهاً أديباً شاعراً، معدوم النظير في علوم شتى ، وهو صاحب التاريخ المشهور "وفيات الأعيان" ، تولى قضاء دمشق مرتين ، الأولى سنة ٦٦٠ تقريباً، ثم عُزل وذهب إلى القاهرة مدة ، وناب فيها في القضاء عن بدر الدين السنجاري ، وأفتى بها ودرَّس ، ثم أُعيد إلى قضاء الشام وسُرَّ الناس بعودته .. وتوفي في دمشق سنة ٦٨١ هجرية . للاستزادة راجع ترجمته في : النجوم الزاهرة ٢٩٩/٧ - ٣٠١ . والسلوى الأندلسي ، عبد القادر بن عبد الرحمن : الكوكب الثابت في أخبار الشعراء وغيرهم من ذوي المناقب . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٢٥ تاريخ تيمور ص ٣١٦ – ٣١٩ .

([4]) النجوم الزاهرة ٣٠٠/٧ .

([5]) هي عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر بنت الباعوني ، أديبة ، عالمة ، ناسكة ، انتقلت من دمشق إلى القاهرة طلباً للعلم ، وأجيزت للإفتاء والتدريس ، لها العديد من المؤلفات ، منها كتاب الفتح الحنفي ، وكتاب الملامح الشريفة والآثار المنيفة .. توفيت في حلب سنة ٩٢٢ هجرية . أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، مطبعة القدس ، القاهرة ١٣٥١هـ ، ١١١/٨ .

([6]) الكواكب السائرة ٣٠٤/١ .

تَلُـودُ بِـهِ الأَعْيَـانُ فِيْمَـا يَهمُهـمْ فَيُلفونَ عَطفَ البَر أوْ فَـائِضَ البر
كَـرِيْمٌ تُجَـارِي الـسُّحُبَ رَاحَتُـهُ وَلاَ يُرِيْدُ بِمَا يُجْزِي سُوى الفَوْزَ بِالأَجْرِ
يُمْـنٌ وَلا مَـنٌ يَـشُوبُ عَطَـاءَهُ وَيَمْنَحُ مِنْ لَفْظٍ سَبَى العَقْلَ بالسحر
عَرَائِسَ فِكْرٍ أرخَصَ الدُرَّ لَفْظُها وأنْـشَتْ مَعَانِيْهَـا لَنَـا دَهْـشَةَ الفِكْـرِ

إنها الصفات التقليدية التي توارثها الشعراء المدّاحون في الثناء على ممدوحيهم ، أما الخصوصية فتكمن في اختيار ما يناسب الممدوح من صفات تتصل بعمله أو تخصصه ، فالعالم أو الأديب يناسبه المدح برجاحة العقل ، وسعة العلم ، وحسن المنطق ، وبراعة المعنى، وجمال اللفظ ، إضافة إلى الصفات العامة كالكَرم ، والنخوة ، والتقوى ..

بقي أن نشير إلى استمرار تدفق شعر التكسب في هذا العصر بالرغم مما رأيناه سابقاً من شكوى الشعراء من كساد سوق هذا اللون من المديح ، وقد وصل بعض الشعراء إلى حدّ إراقة ماء الوجه وهو يطلب العطاء من ممدوحه ، من ذلك – مثلاً – قول جمال الدين محمد بن نباته([1]) في مدح صاحب حماة الملك المؤيد أبي الفداء([2]) :

يَا إمَامَ الوَرى ، مَضَى نِصْفُ عَامٍ مِـنْ وصُـولِي وَلَـمْ يَـصِلْ لِـيَ رُبْـعُ
سَـــنَةٌ إن غَفَلْـــتَ عَنِّـــي فِيْهـــا كَـسَرَتْنِي وكَيْـفَ لا ، وهـيَ سَـبعُ

وقوله([3]) :

شَـكَرَتْ لُهَـاكَ فَمَـا أشُـكُّ بِـأَنَّني ثَقَّلْـــتُ وَهْـــيَ مُطِيْقَـــةٌ أثْقَالَهَـــا
أغْنَيْتَنِـي عـن كُـلِّ ذِي مَـالٍ فَلَـمْ أفْـتَحْ يَـداً لِـسِوى نَـدَاكَ وَلا لَهَـا
وَكَفَيْتَنِـي حتـى فَفَـوْتُ مَعَاشِـراً كَثُـرَ النـدَى فَاسْـتَكثَرَتْ أطْفَالَهَـا
أيَـامَ مَـا لِـي غَيْـرَ قَـصْدِكَ حِيْلَـةٌ تُنْجِي وتُنْجِعُ فِي الوَرى نُطَّالَهَا([4])
لاَ زِلْـتَ مَقْـصُودَ الحِمَـى بِقَـصَائِدٍ أصْبَحْتَ عِصْمَةَ أمْرَهَا وَثِمَالَهَا([5])
لَـولاكَ لَـمْ يَخْطُـرْ بِبَـالي نَظْمُهَـا لا وَالَـــذي يَلْقَـــاكَ أنْعَـــمَ بَالَهـــا
سـألْتَ رِوَايَـاتِ النَّـدَى فَتَـأخَّرَتْ عَنْهَـا الـوَرَى وَأجَـزْتَ أنْـتَ سُؤَالَهَا

نلاحظ أن ابن نباته لم يحفظ ماء وجهه ، وكان بوسعه استخدام لغة الشعر الموحية التي برع في استخدامها ، ولكن هذا حال معظم الشعراء في هذا اللون من المديح ، لم يحسنوا استخدام أدواتهم الفنية في التعبير عن حاجاتهم ، فحشدوا الصفات واحدة تلو أخرى دون ترابط.

أما السراج الوراق فقد كان أبرع من ابن نباتة حينما مزج طلب العطاء بلطيف المعاني وخفة الظل في قوله([6]) :

كَـمْ قَطَـعَ الجـودُ مِـن لِـسَانٍ قَلَّـــدَ مِـــنْ نَظْمِـــهِ النُّحـــورَا
فَهَـــا أنَـــا شَـــاعِرٌ سِـــرَاجٌ فَـــاقْطَعْ لِـــسَانِي أزِدْكَ نُـــورَا

ومن طريف ما قاله شعراء التكسب في هذا العصر قول علاء الدين بن مليك الحموي([7]) :

([1]) هو محمد بن محمد بن محمد بن أبي الحسن بن صالح ابن الخطيب عبد الرحيم ابن نباته ، ولقبه جمال الدين ، ولد بمصر سنة ٦٨٦ هجرية ، تعلم على أبيه وشيوخ مصر ورجال العلم فيها ، حاول الارتزاق بشعره فمدح أمراء الشام الأيوبيين وأثرياءها ، ثم عمل في ديوان التوقيع بدمشق ثم عاد لمصر بعد غيبة استمرت نصف قرن تقريباً ، واشتغل في الديوان مع المماليك .. توفي بالقاهرة سنة ٧٦٨ هجرية . راجع ترجمته في : عمر موسى باشا : ابن نباته المصري أمير شعراء المشرق ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف، مصر ١٩٩٢م ، ص ١١٥ - ٢٧٠ .

([2]) عمر موسى باشا : ابن نباته المصري أمير شعراء المشرق ، ص ٣٦ .

([3]) السابق ١٥٥ . وانظر في مدح التكسب وطلب العطاء : - شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق محمد حوّر ، منشورات المجمع الثقافي ، أبو ظبي – الإمارات العربية المتحدة ٢٠٠٣م ، ٣٨١/١٦ – ٣٨٢. – شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت ١٩٩٢م ، ٣١/١ ، ٣٨ ، ٣٦٨ .

([4]) نطال : جمع ناطل ، ونطل الخمر عصرها .

([5]) ثمال القوم : غياثهم الذي يقوم بأمرهم .

([6]) ريحانة الألبا ٤٣٠/١ . والشاعر هو سراج الدين عمر بن محمد بن حسن ولد بمصر سنة ٦١٥ هجرية ، وقد اشتهر بالظرف والفكاهة ، توفي سنة ٦٩٥هجرية . راجع ترجمته في : النجوم الزاهرة ٦٩/٨ .

مَــدَحْتُكُم طَمَعــاً فِيْمَــا أُؤَمِّلُــه فَلَمْ أَنَلْ غَيْرَ حَمْلِ الإِثْمِ والنَّصَبِ
إِنْ لَـمْ تَكُـنْ صِلَةٌ مِـنْكُمْ لِـذِي أَدَبٍ فَـأُجْرَةُ الخَـطِّ أَوْ كَفَّـارَةُ الكَـذِبِ

وكذلك قوله([2]) :

لاَ تَعْجَبُوا مِنْ صَدِيقٍ كُنْتُ أَمْدَحُهُ وَقَدْ هَجَانِي وَمَا فِيْ ذَاكَ مِنْ عَجَبِ
بَلْ اعْجَبُوا مِنْ ذَكَاءٍ فِيْهِ كَيْفَ دَرَى أَنِّـي كَـذَبْتُ فَجَـازَانِي علـى الكَـذِبِ

ومن بديع معاني التعفف عن طلب العطاء من الممدوح قول صفي الدين الحِلّي([3]):

وَلَقَدْ أَسِيْرُ عَلَى الضَّلاَلِ وَلَمْ أَقُلْ : أَيْنَ الطَّرِيْقُ ، وَإِن كَرِهْتُ ضَلاَلِي
وَأَعَـافُ تَـسْآلَ الـدَّلِيْلِ تَرَفُّعـاً عَـن أَنْ يَفُـوْهَ فَمِـي بِلَفْـظِ سُـؤَالِ

* * *

أما في **العصر العثماني** فلا تكاد تختلف بواعث فن المديح عمّا كانت عليه في العصر المملوكي وما سبق من عصور العربية ، ففتوحات العثمانيين التي أوقفت الزحف الصليبي على المشرق الإسلامي ، ووصلت بالإسلام إلى عمق العالم الصليبي ، حازت إعجاب الشعراء وجعلتهم يلهجون بنشر بطولاتهم ، وتمجيد صفاتهم([4]) ، وكذلك حظيت أعمال الأمراء والوزراء وبعض رجال الدولة في الأمصار العربية إعجاب الشعراء ، فعددوا مناقبهم، وامتدحوا صفاتهم ، وخلدوا أعمالهم . وقد ظفر رجال الدين والعلماء والأدباء بنصيب وافر من شعر المديح في هذا العصر ..

لقد تغنى الشعراء ببطولات السلاطين العثمانيين ، وأثنوا عليهم وقرضوا صفاتهم ، فمما قيل في مدح السلطان مراد بن سليم عندما فتح مدينة تبريز عام سنة ٩٩٣ هجرية نشير إلى قصيدة ابن القاف الرومي([5]) التي منها قوله([6]) :

فَيَـا مَلِيْكـاً لَـهُ كُـلُّ الملـوكِ غَـدَتْ تَـدِيْنُ طَوْعـاً وَتَـأْتِي وَهْـيَ تَعْتَـذِرُ
سِـرْ وَامْلُـكِ الأَرْضَ والـدُّنْيَا فَأَنْـتَ إِذاً إِسْكَنْدَرُ العَصْرِ قَدْ وَافَى بِهِ الخَضِرُ
فَيَـا لَهَـا نِعْمَـةٌ آثَـارُ مَفْخَرِهَـا كَانَـتْ لِدَوْلَتِـهِ الغَـرَّاءِ تُـدَّخَرُ
ظِـلُّ الإِلـهِ مُـرَادُ اللهِ قَـدْ شَـرُفَتْ بِـهِ المَنَـابِرُ والتِّيْجَـانُ والـسُّرُرُ
أَجَـلُّ مَـنْ وَطِـئَ الغَبْـرَاءَ مِـنْ مَلِـكٍ بِـأَمْرِهِ سَـائِرُ الأَمْـلاَكِ تَـأْتَمِرُ
بِعَزْمِـهِ ظَهَـرَ الفَـتْحُ الَّـذِي عَجِـزَتْ عَنْـهُ السَلاطِيْنُ ، قَـدْ أَفْنَـتْهُمُ العُـصُرُ
وَلَـوْ فَاخَرَتْـهُ مُلُـوكُ الأَرضِ قَاطِبَـةً مَـا نَـالَهُم مِـنْ مَعَـانِي فَخْـرِهِ العُـشُرُ
هَلْ يَسْتَوِي الشمسُ والمِصْبَاحُ جُنْحَ دُجىً وَيَـسْتَوِي الجَارِيَـانِ البَحْـرُ والنَّهْـرُ
بَـدَا لَـهُ فِـي سَـمَاءِ المَجْـدِ نُـوْرُ هُـدىً مِـنْ دُوْنِـهِ النَّيِّـرَانِ الـشَمْسُ والقَمَـرُ
وَأَصْـبَحَ المُلْـكُ مَحْـرُوْسَ الجَنَـابِ وَقَـدْ وَافَـى بِـهِ المُـسْعَدَانِ القَـدْرُ والقَـدَرُ

لقد تجلّت قناعة الشاعر بممدوحه فيما رأيناه من إصراره على تأكيد معاني القوة والمنعة، إذ أصبحت الملوك تدين له طوعاً ، وتعتذر عمَّا بَدَر منها ، وجعله اسكندر العصر الذي تحدث

([1]) هو علي بن محمد بن علي بن عبد الله ، علاء الدين بن مليك الحموي ، ولد بحماة سنة ٨٤٠هـ ، درس الأدب والنحو والعروض ، واشتغل بالعلم والأدب ، وبرع في الشعر .. توفي سنة ٩١٧ هجرية . ريحانة الألبا ١٨٨/١ – ١٩٠ .

([2]) السابق ١٩٠/١ .

([3]) ديوان صفي الدين الحلّي ٤٧ .

([4]) كذلك مجَّد الشعراء اهتمام السلاطين بالمقدسات الإسلامية ، ودور العبادة والعلم ، ومن هؤلاء السلاطين "السلطان مراد" ، الذي أعاد بناء الكعبة بعد أن هدمها السيل سنة ١٠٣٩ هجرية فاستحق مدح الشعراء . انظر : خلاصة الأثر ٣٣٩/٤ – ٣٤٠ .

([5]) هو فيض الله بن أحمد ، المعروف بابن القاف ، الرومي ، قاضي العسكر ، وأحد فضلاء مشاهير الروم ، ولد سنة ٩٥٠ هجرية، وتولى قضاء حلب ، ثم قضاء الشام سنة ٩٩٠ هجرية ، ثم عزل ورحل إلى بلاد الروم ، ثم تولى قضاء العسكر ، توفي سنة ١٠٢٠ هجرية . انظر ترجمته في : خلاصة الأثر ٢٨٨/٣ – ٢٩٢ . ونفحة الريحانة ٩٣/٣ – ٩٩ .

([6]) نفحة الريحانة ٩٧/٣ – ٩٨ . والقصيدة في خلاصة الأثر ٢٩٠/٣ – ٢٩١ .

القرآن الكريم عن صفات عزته وآية بلوغه مغرب الشمس([1]) ، ثم تحدث عن رضا الله تعالى عنه إذ ادخر له نعمة هذا الفتح ، ثم طفق يمدحه بأبهى الصفات والمناقب .

ومما مدح به السلطان محمد خان الرابع بعد افتتاح قلعة "إيوار" سنة ١٠٧٤ هجرية نذكر قصيدة من القصائد التي مدحه بها الشعراء ، قال عبد اللطيف البهائي البعلي([2]) :

مَلِكٌ عَلا فِي المَجْدِ أعْلَى رُتْبَةٍ ... أنِفَتْ تَكُوْنُ لَهُ الثُّرَيَّا مَنْزِلاَ
تعْنُوا مُلُوكُ الأرْضِ قَاطِبَةً لَهُ ... أبَداً وَتَسْعَى خِيْفَةً وَتَذَلُّلاَ
تَخْشَى سُطَاهُ الأُسْدُ فِي آجَامِهَا ... فَتَدُوْبُ مِنْهُ تَضَاؤُلاً وَتَغَلْغُلاَ
قَسَماً بِطَلْعَتِهِ أَلِيَّةَ صَادِقٍ ... فِي حَلْفِهِ بَرِّ اليَمِيْنِ إذَا ائْتَلَى
لَمْ تَسْمَحِ الأيَامُ قَطُّ بِمِثْلِهِ ... مَلِكٌ تَعَمَّمَ بِالتُّقَى وَتَسَرْبَلاَ
لَمْ يُحْصِ مَادِحُهُ جَمِيْلَ صِفَاتِهِ ... كَلاَّ وَلَوْ أفْنَى القَرِيْضَ تَسَلْسُلاَ
لَمْ يَأْلُ جُهْداً فِي الجِهَادِ وَلَمْ يَزَلْ ... يَسْعَى بِإرْسَالِ الجيُوشِ مُكَمَّلاَ
فِيْ نُصْرَةِ الدِّيْنِ المُبِيْنِ مُجَاهِداً ... بَرًّا وَبَحْراً لِلْعَسَاكِرِ مُرْسِلاَ
عَنْ حَوْمَةِ الإسْلامِ ذَبَّ عِدَاتِهِ ... وأبَادَ عُبَّادَ الصَلِيْبِ وَزَيَّلاَ
مَا زَالَ يَضْرَعُ فِي الدُّعَاءِ لِرَبِّهِ ... سِرًّا وَجَهْراً مُجْمِلاً وَمُفَصِلاَ
مُتَوَجِّهاً بِخُلُوصِ قَلْبٍ صَادِقٍ ... فِيْمَا اِنْتَحَاهُ تَضَرُّعاً وَتَبَتُّلاَ
فَأَتَتْهُ بُشْرَى الفَتْحِ وَهْوَ مُلَفَّعٌ ... ثَوْبَ السَعَادَةِ بِالجَلاَلِ مُسَرْبَلاَ
مُسْتَيْقِناً بِحُصُولِهِ وَمُؤَمِّلاً ... مِنْ رَبِّهِ إتْمَامَهُ مُتَوَكِّلاَ
لاَ زَالَ تَأْتِيْهِ البَشَائِرُ دَائِماً ... أبَداً وَتَخْدِمَهُ المَفَاخِرُ والعُلَى
وأدَامَهُ عَوْناً وَغَوثاً لِلْوَرَى ... وَحَبَاهُ رَبُّ العَرْشِ عُمْراً أطْوَلاَ
بِسِمِيِّهِ خَيْرِ الأنَامِ مُحَمَّدٍ ... وَالآلِ وَالصَحْبِ الكِرَامِ ذَوِي الوَلاَ
مَا لاَحَ نَجْمٌ فِي السَمَاءِ لِنَاظِرٍ ... وَأضَاءَ بَدْرٌ فِي الدُّجَى وَتَهَلَّلاَ

أدار الشاعر معاني مدحه حول منزلة السلطان محمد خان الرابع ، وقوة بأسه ، وخشية الأعداء من بطشه ، وتفرده عبر الأزمان بالتقوى والغيرة على الإسلام ، والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ، وأسهب في تقريض صفات تدينه وتقرّبه إلى الله عزّ وجلّ ، ثم ختم مديحه بالدعاء له أن يبقى عوناً للناس ، وأن يطيل ربُّ العرش عمره . وكما هو واضح فقد سار الشاعر في ركب شعراء المدح في العصور السابقة ، وترسّم خطاهم في ترديد معاني الشجاعة ، وهيبة الجانب ، والتقوى ، والجهاد في سبيل الله تعالى ، وقد أعانته قوة قريحته ، وحُسن ظنه بالسلطان على الوصول إلى غايته ببراعة دون أن يقع في حبائل التكلف أو التقليد.

ومما قاله الشعراء في تخليد بطولات الجيش العثماني ، ومدح الوزراء والقادة نذكر قول الشاعر قطب الدين المكّي([3]) في مدح الوزير سنان باشا ، لأنه أعاد الأمن والاستقرار لليمن([4]) :

لَكَ الحَمْدُ يا مَوْلاَيَ في السِّرّ والجَهْرِ ... على عِزَّةِ الإسلامِ والفَتْحِ والنَّصْرِ
كَذَا فَلْيَكُنْ فَتْحُ البِلادِ إذَا سَعَتْ ... لَهُ الهِمَمُ العَلْيَا إلى شَرَفِ الذِّكْرِ
جنودٌ رَمَتْ مِنْ كَوْكَبانِ([5]) خِيَامَها ... وآخِرُهَا بالنِّيلِ مِنْ شَاطِئَيْ مِصْرِ

([1]) قال تعالى : "حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً .." سورة الكهف، آية ٨٦ .

([2]) نفحة الريحانة ٣٩٧/٢ – ٣٩٨ . وانظر أيضاً : خلاصة الأثر ٣٥٤/١ .

([3]) "هو قطب الدين ، محمد بن علاء الدين أحمد بن محمد ، النهرواني ، الهندي ، ولد سنة سبع عشرة وتسعمائة .. وكان بارعاً متفنناً ، في الفقه ، والتفسير ، وعلوم العربية ، ونظم الشعر ، وشعره في غاية الرقة . كتب "تاريخ لمكة المشرفة" ، وألف "طبقات الحنفية" ، وقد احترق في جملة كتبه .. توفي سنة تسعين وتسعمائة" . انظر ترجمته وبعض شعره في :
شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي : ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٦٧م ، ٤٠٧/١ .

([4]) هو الوزير الأعظم سنان باشا ، وليّ الحكومة في مصر أيام السلطان سليم بن سليمان ، انتدبه السلطان لإعادة الاستقرار إلى اليمن ، كذلك قاد جند المسلمين في تحرير تونس من الفرنجة الصليبيين ، كذلك عينه السلطان لحرب النمسا ، توفي سنة أربع بعد الألف هجرية . السابق ٤١١/١ .

([5]) كوكبان : جبل قر ب صنعاء .

تَجُـرُّ مِـنَ الأبْطَـالِ كُـلَّ غَـضَنْفَرٍ بِـصَارِمِهِ يَـسْطو علـى مَفْـرِقِ الـدهرِ
عَـسَاكِرُ سُـلْطَانِ الزَمَـانِ مَلِيْكِنَـا خَلِيْفَةِ هذا العَصْرِ في البَرِّ والبَحْرِ([1])
حَمَـى حَـوْزَةَ الـدِّينِ الحَنِيفـيِّ بالقَنـا وَبِـيْضِ المَواضِـي والمُثَقَّفـةِ الـسُّمْرِ

وبعد أن وصفه وجيشه بالشجاعة ، والغيرة على الإسلام وبلاد المسلمين ، امتدح رجاحة عقله ، وبُعدَ نظره ، وجعله في حُسن تدبيره كيوسف الصديق عليه السلام ، فقال([2]) :

وَزِيْـرٌ عَظِـيْمُ الـشَّانِ ثَاقِـبُ رَأْ يُـهُ يُجَهِّـزُ فـي آنٍ جيوشـاً مـن الفِكْـرِ
سِنَانٌ عَزِيـزُ القَـدْرِ يُوسُـفُ عَـصْرِهِ أَلَـمْ تَـرَهُ فـي مِـصْرَ أَحْكَامُـهُ تَجْـرِي
وَهَـلْ تَطْمَـعُ الأعْـدَاءُ فـي مُلْـكِ تُبَّـعٍ وتَأْخُـذُه مِـنْ آلِ عُثْمَـانَ بِـالمَكْرِ

أما الشاعر القائد شرف الدين أحمد بن يحيى([3]) فقد أشاد بجيشه وقادة جنده ، ووصف قوة عريكتهم وكثرة عددهم ، ومدح شجاعتهم التي مكنته من فتح مدينة صعدة اليمنية ، وقد سلّط الأضواء على القوميات التي ينتمي إليها أفراد جيشه الإسلامي ، من ذلك قوله([4]) :

وجَحَافِـلٌ مثـلَ الجبـالِ تلاطَمَـتْ أمْـوَجُهُنَّ بِكُـلِّ أصْـيَدِ أغْلَـبِ
مِـنْ كُـلِّ أبْلَـجٍ مِـن دُؤَابَـةِ هَاشِـمٍ وَبِكُـلِّ أرْوَعَ مِـن سُـلالَةِ يَعْـرُبِ
وأعَـــاجِمُ تُـــرْكٌ وروم قَـــادَةٌ وأحَـابِشٌ مِثْـلَ الأُسُـودِ الوثَّـبِ

ولمّا فتح العثمانيون قلعة "قندية" عاصمة جزيرة كريت عام ١٠٨٠ هجرية ، ابتهج المسلمون بهذا النصر ، لأن هذه القلعة كانت شديدة التحصين ، ولأن جزيرة كريت الجزيرة كانت مركزاً مُتقدماً لانطلاق الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي ، ومنها كان ينطلق القراصنة للإغارة على سفن المسلمين وشواطئهم ، وقد عبَّر الشعراء عن غبطتهم بهذا النصر، ومدحوا العثمانيين ، وأشادوا بمناقب القائد العثماني الفاتح "الصدر الأعظم أحمد كوبرلي باشا"([5]) ، من ذلك قول ابن النقيب الحسيني([6]) :

مَـا آلُ بَرْمَـكَ فـي دُرا بَغْـدَادِ يَـوْمَ الفَخَـارِ ولاَ بَنُـو عَبَّـادِ
يَوْمـاً بِـأوْقَعَ فـي النفُوسِ مَفَـاخِراً مِمـا لَكُـمْ مِـنْ سُـؤْدُدٍ وسَـدادِ
حَلَّيْـتُمُ جِيْـدَ الزَمَـانِ بِدَوْلَـةٍ حَلَّـتْ مَحَـلَّ الـروحِ فـي الأجْسادِ
جَلَّ المُهَيْمِنُ كَمْ أتَـاحَ لِذا الـوَرَى مِنْهَـا جَمِيْـلَ عَـوَارِفٍ وأيَـادِ
إيـهٍ بِعَيْـشِكَ يـا زَمَـانُ فَـلا تَنِـي أبَـداً بِنَـشْرِ مَحَاسِـنَ الأمْجَـادِ
فَنَحـوا بِقنديـةٍ مَعَاقِـلَ أُرْتِجَـتْ قِـدماً علـى الأمَـرَاءِ والأجْنَـادِ
وافَـى لَهـا الـصَدْرُ الرَفِيْـعُ جَنَابُـهُ عِلْـمُ الغُـزَاةِ ومُكْمِـدُ الحُـسَّادِ
ولَـهُ بِـدِيْنِ الحَـقِّ صَـوْلَةُ نَاصِـحٍ دَكَّ الغُـزَاةُ بِهَـا دُرا الأطْـوَادِ
تَـرْوِي لَـهُ الأيَـامُ طِيْـبَ مَفَـاخِرٍ ومَـآثِرٍ عَـزَّتْ علـى الأنْـدَادِ
أنْـتُمْ بَنِـي العَلْيَـاءِ قُطْـبُ مَـدَارِهَا يَـوْمَ الفَخَـارِ ومَوْئِـلَ القُـصَادِ

([1]) كان يطلق على السلطان العثماني لقب "سلطان البرين ، والبحرين ، وخادم الحرمين الشريفين" . راجع : تاريخ الأدب العربي – العصر العثماني ١٣ .

([2]) ريحانة الألبا ٤١٢/١ .

([3]) هو الإمام المتوكل على الله شرف الدين بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى ، ولد سنة ٨٧٧ هجرية بحصن حضور ، وارتحل إلى صنعاء عام ٨٨٣ وهناك تلقى علومه الأولى ، وقرأ أمهات كتب العربية والدراسات الإسلامية على علماء اليمن وشيوخها ، له مصنفات منها : كتاب "الأثمار" ، توفي سنة ٩٦٥ هجرية ، ودفن بحصن الظفير . راجع ترجمته في : الشوكاني : البدر الطالع ١٩٤/١ – ١٩٦ .

([4]) البدر الطالع ١٩٥/١ .

([5]) هو أحمد باشا بن محمد باشا الوزير الأعظم المعروف بالفاضل أحمد باشا الكوبري الأصل ، القسطنطيني المولد ، وقد عدّه "المحبي" أهم وزراء الدولة العثمانية ، وقال عنه : "لم يكن في الوزراء من يحفظ الدين وقانون الشريعة مثله" وذكر من فتوحه وانتصاراته أنه هزم ثوار المجر ، وفتح قلعة "قندية" التي بقيت منذ دون فتح منذ أن فتح السلطان إبراهيم بن أحمد (ت ١٠٥٨ هـ) الجزيرة كلها باستثنائها ، لأنها كانت شديدة التحصين . خلاصة الأثر ٣٥٢/١ – ٣٥٤ .

([6]) هو عبد الرحمن بن محمد بن كمال الدين الحسيني ، الدمشقي ، المعروف بابن النقيب ، لأن والده كان نقيب الأشراف في بلاد الشام ، ولد سنة ١٠٤٨هـ ، تتلمذ على والده ، وغيره من علماء العصر ، ثم تعانى الإنشاء ونظم الشعر ، وأحسن فيهما كل الإحسان حتى بلغت شهرته الآفاق .. مات بوباء الطاعون الذي انتشر في دمشق سنة ١٠٨١ هجرية . خلاصة الأثر ٣٩٠/٢ – ٤٠٤ . وانظر القصيدة في ديوان ابن النقيب ، تحقيق عبد الله الجبوري ، طبعة مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٦٣م ، ص ٩٣ .

أشْـفَعْتُمُ شَـرَفَ الجِهَـادِ بِمَقْـصدٍ أسْـنَى ومَـسْعَاةٍ لِخَيْـرِ مَفَـادِ

إن ابتهاج الشاعر بفتح "قندية" ، وإعجابه بالوزير أحمد كوبرلي باشا جعله يقرن مفاخر آل كوبرلي العثمانيين الأتراك بمفاخر البرامكة في بغداد ، ومفاخر بني عباد في اشبيلية ، ليس ذلك فحسب بل نراه ينحاز للعثمانيين ودولتهم ، ثم يمجد صفات الوزير وآله ، ويعدد مناقبهم ومنها نصرة الدين وإعلاء راية الجهاد .

ولم يكن ابن النقيب بدعاً في تمجيد هذا الوزير الفارس ، فكثير من شعراء العصر العثماني تغنوا بفتح قلعة "قندية" ، وامتدحوا إقدام هذا الوزير وشجاعته ، كما أشادوا بعلمه وتقواه ونصرته للإسلام([1]) .

أما رجال الدين والعلماء والأدباء فقد فازوا بنصيب الأسد من شعر المديح في العصر العثماني ، وقد تنوعت الصفات التي وصفهم الشعراء بها ، فإلى جانب الصفات الخاصة التي تتصل بعملهم وعلمهم مدحوهم – غالباً – بالصفات التقليدية كالشجاعة ، والسخاء ، والتقوى ، وحُسن الرأي ، وعراقة الأصل .. ، من ذلك ما ينطوي عليه قول ابن القطان([2]) في مدح القاضي علاء الدين علي بن عبد الله العشاري الحلبي المعروف بابن الحنبلي([3]) :

ضَـاءَتْ بِمَنْـصِبِهِ الشَّهبَاءُ وهو بها لِنَـصْرَةِ الحَـقِ لا وَانٍ ولاَ قَلِـقِ
يؤمُّـهُ العَـاجِزُ المَلهُـوفُ ينجـدُهُ نعمْ ويخرجُـهُ من أضيقِ الطُّرقِ
لـه الـسِّيادَةُ فـي الـدُّنيا مُؤَبَـدَةٌ على الدَّوامِ مَدَى الأيامِ في نَسَقِ
قَاضِي القُضَاةِ رَقَى في المَجْدِ منزلـةً تَعْلُو على الدَّهْرِ والأفلاكِ والأُفُقِ
يَـا مَـنْ بِـهِ حَلَـبٌ أحْوَالُهـا صَـلُحَتْ وبَـاتَ سَـاكنُها بـالأمن مِـن فَـرَقِ
للهِ دَرُّكَ يـا مَـولايَ مِـنْ رَجُـلٍ لِـسَانُهُ نـاطِقٌ بِـالحَقِّ مُنْطَلِـقِ

لقد خص ابن النقيب ممدوحه بالصفات التي يتصف بها القاضي النزيه ، فمدحه بالعدل ، ونصرة الحق ، والانتصار للضعيف .. ، ثم مدحه بالصفات العامة التي يشترك فيها العلماء .

ومن القصائد الطويلة الجامعة للصفات والمعاني التي مُدِحَ بها القضاة والعلماء قصيدة الصَّنعاني([4]) في مدح القاضي محمد بن علي الشوكاني([5]) ، التي منها قوله([6]) :

قَـاضٍ بِبَهْجَتِـهِ الأيـامَ مُـشْرِقَةٌ كَالِشَّمسِ لَكِنَّ نُورَ الشَّمسِ لَمْ يَدُمِ
فَالحَمْـدُ للهِ دُنْيَانَـا بِبَهْجَتِـهِ إشْـرَاقُهَا غَيْـرَ مَسْلُوخٍ عن الظُّلَمِ
قَـاضٍ إذا جِئْتَـهُ يَوْمـاً لَقِيْـتَ بِـهِ كُلَّ الأفَاضِلِ مِنْ عَرَبٍ ومِنْ عَجَمِ
يَخْشَى الخُصُومُ ارْتِعَاداً مِنْ مَهَابَتِهِ حَتَّـى كَـأنَّ بِهِـمْ ضَـرْبٌ مِـنَ اللمَمِ
لأنَّ مـا أضْـمَروهُ فـي فَرَاسَـتِهِ مِـنْ حُـسْنِ إيْمَانِـهِ نَـارٌ علـى عَلَـمِ

إلى غير ذلك من قصائد المديح الطوال التي خلدت ذكر العلماء والقضاة المنتشرين في أرجاء الدولة العثمانية المترامية الأطراف([7]) .

ويدخل مدح الشعراء للكُتّاب ، وأصحاب الكتب والمؤلفات ، في باب المودة الصادقة – غالباً - ، والإعجاب بمناقب الممدوح ، وتقريظ صفاته التي تتصل بالفصاحة ، وجودة الألفاظ ،

([1]) انظر مثلاً قصيدة مصطفى بن عثمان البابي الحلبي قاضي المدينة المنورة ، التي يقول في مطلعها :
لـكَ اللهُ مِـنْ نَـدْبٍ إذا هَـمَّ صَـمما وطَـــلاَّعَ أنْجَـــادٍ إذا أمَّ تَمـمـــا
المحبي : خلاصة الأثر ٣٥٥/١ .

([2]) هو الشاعر علي بن عبد الله المعروف بابن القطان ، المتوفى سنة سنة ٩٣٢هـ .

([3]) أحمد فوزي الهيب : الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٦م ، ص ٢٤٠ .

([4]) يقول الشوكاني في تعريفه : "السيد أحمد بن علي بن مُحسن بن الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم الصَّنعاني ، ولد تقريباً سنة ١١٥٠ . واشتغل بطلب العلم بعد أن قارب الخمسين من عمره . ثم قرأ عليَّ في النحو ، والصرف ، والمنطق ، والمعاني ، والبيان ، والحديث ، والتفسير وأدرك إدراكاً كاملاً لاسيما في العلوم الآلية . وفهمه جيد وفكره صحيح وتصوره حسن وإدراكه كامل .." . البدر الطالع ٥٨/١ .

([5]) وهو مؤلف كتاب "البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع" ، المتوفى سنة ١٢٥٠ هجرية .

([6]) البدر الطالع ٥٩/١ .

([7]) انظر مثلاً : ريحانة الألبا ٥٠/١ ، ٩١-٩٣ ، ١٢٩ . ونفحة الريحانة ١٩/١ ، ٩٣ ، ١٣٩ .

وجمال المعاني ، وسعة الثقافة ، إضافة إلى الصفات العامة المشتركة ، وطبعاً تتفاوت الصفات حسب مكانة الممدوح ، ورتبته إذا كان كاتباً في ديوان الإنشاء ، ومن المدائح السيارة في هذا الباب قصيدة فتح الله بن النحاس([1]) في مدح رئيس ديوان الكتاب بدمشق ، مراد بن هداية الله([2]) ، التي يقول فيها([3]) :

بِـصَبَاحِ وَجْهِـكَ تُـشْرِقُ الأنْـوَارُ ... وَلِبَـابِ مَجْـدِكَ تَهْـرَعُ الأمْجَـادُ
وإذا جَـرَى ذِكْـرُ الأنَـامِ بِمَجْلِـسٍ ... بَـدَءُوا بِـذِكْرِكَ وانْتَهَـى الأعْـدَادُ
سَـجَدَتْ لَـكَ الأفْـلاكُ حِـيْنَ رَفَعْتَهَـا ... والغَـابُ تَرْفَـعُ ذِكْـرَهُ الآسَـادُ
حَيَّـرْتَ حُـذَّاقَ الحِـسَابِ بِفِكْـرَةٍ ... تَـــرَكَتْهُمُ والْـــوفُهُم آحـــادُ
قُسُ الفَصَاحَةِ([4]) لَوْ نَطَقْتَ سَحَرْتَهُ ... وَلَـوَدَّ لَـو أنَّ الحَـدِيْثَ يُعَـادُ
لَـمْ يَـسْبِقُوْكَ وإنْ سُـبِقْتَ بِوَالِـدٍ ... فَكِلاهمـا فـي المَـأثِراتِ جَـوَادُ
مَـا المَجْـدُ إلاّ أنْ يَكُـونَ وِرَاثَـةً ... وتَزِيْـدُ عَـنْ آبَائِهَـا الأوْلادُ
مِـنْكُمْ بَـدَا نَجْـمُ الهدَايَـةِ لِلْعُـلا ... وعَـشَا لِنَـارِ قِـرَاكُم القُـصَّادُ
كُـلٌّ يُؤَمِّـلُ أنْ يُـرَادَ سِـوَى الـذِي ... خَلِـعَ القَبُـولُ عَلَيْـهِ وهُـوَ يُـرَادُ
إنَّ الـسِيَادَةَ فِـيْ دُرَاكَ تَعَـوَّدَتْ ... بِـكَ أنْ يَمِـدَ يَـداً لَهَـا الحُـسَّادُ
عَزَمَـاتُ مِثْلِـكَ لا تُعَـابَ بِحِـدَّةٍ ... بِـيْضُ الـصَوَارِمِ كُلُّهُـنَّ حِـدَادُ
هَـذَا الغَمَـامُ علـى الخَلائِـقِ رَحْمَـةٌ ... وصِـفَاتُهُ الإبْـرَاقُ والإرْعَـادُ
يَـا دَوْحَـةً ظِـلُّ الـسَعَادَةِ ظِلُّهَـا ... لا زَالَ حَولَـكَ ظِلُّـكَ المَيَّـادُ
ورَعَـى حِمَـاكَ مِـنَ العِنَايَـةِ حَـارِسٌ ... وسَـقَى ثَـرَاكَ مِـنَ الحَيَـا عِهَـادُ

لقد زاوج الشاعر بين العام المشترك من الصفات المحمودة ، والخاص الذي يميز الكُتَّاب والأدباء ، ثم أضفى على العام منها خصوصية تتصل بتفرد هذا الممدوح ، فمن بهاء طلعته يستمد الصباح أنواره ، وطيب ذكره يُغنِي عن ذكر سواه من الأماجد ، وهو القمر الذي تستمد النجوم منه ضياءها .. ثم يجعل الشاعر هذه المناقب مدخلاً للخاص الذي يميز ممدوحه عن أهل البراعة والبيان ، فيمتدح براعته في الحساب مبيناً أنها لا تدانيها براعة ، وفصاحته التي يغبطه عليها فصحاء العرب أمثال "قُس بن ساعدة" ، ثم يجتهد في تأصيل براعته وفصاحته ، ويمدح الوالد المورِّث ، ويؤثر ولده عليه بما يتفوق الأبناء على الآباء ، ويجعله القدوة الذي يهتدي به طلاب المجد والعلا . ويعود الشاعر ثانية للعام المشترك من الصفات ، ويمزجها مع ما يخص به ممدوحه ، فيجعل السيادة تخشى عليه عيون الحاسدين ، ثم عاد للحديث عن علو همته ، وسخاء يده ، وختم بالدعاء له بدوام السعادة ، وطول العمر ، وأن يكلأه الله عزّ وجلّ برعايته .

لقد استقصى الشاعر كل ما يمكن أن يمدح به إنسان ماجد ، وكاتب متميز ، وعبر عن إعجابه بممدوحه ، وصدق أحاسيسه تجاهه ، وشف الدعاء له في ختام القصيدة عن روح المودة ..

وقد أفاض الشعراء في الثناء على الأدباء المجتهدين ، وأشادوا بكتبهم ومؤلفاتهم ، ومن شواهد هذا المديح نذكر قصيدة للشاعر ابن المنقار الدمشقي([5]) في مديح مؤلف كتاب "ريحانة الألِبَّا وزهرة الحياة الدنيا ، شهاب الدين الخفاجي([6]) ، يقول في مطلعها([7]) :

([1]) هو فتح الله بن عبد الله بن النحاس الحلبي ، أكثر من التنقل ، دخل دمشق مرات ، وأقام بمصر مدة .. توفي بالمدينة المنورة سنة ١٠٥٢هـ . انظر ترجمته في نفحة الريحانة ٥٠٧/٢ ــ ٥٣٣ ، وخلاصة الأثر ٣٥٤/٤ ــ ٣٥٥ .

([2]) هو مراد بن هداية الله العجمي الأصل الدمشقي المولد .. توفي وهو عائد من الحج سنة ١٠٤٣ هجرية . انظر : خلاصة الأثر ٣٥٤/١ .

([3]) خلاصة الأثر ٣٥٤/١ ــ ٣٥٥ .

([4]) أظن أن الشاعر يُشير إلى "قُس بن ساعدة" ، الخطيب الجاهلي المشهور .

([5]) هو عبد اللطيف بن يحي بن شمس الدين محمد بن القاسم ، ابن المنقار الدمشقي ، المتوفى سنة ١٠٥٧هـ، وهو سليل عائلة اشتهرت بالشعر والعلم ، وأشهرهم جده شمس الدين محمد . راجع في ترجمته : ريحانة الألبا ١٣١/١ . وخلاصة الأثر ٢٠/٣.

([6]) هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي (٩٧٧ ــ ١٠٦٩هـ) ، وقد تحدث محقق الكتاب عبد الفتاح محمد الحلو عن حياته وكتبه المنشورة والمخطوطة . راجع ريحانة الألبا ٣٧/١ .

بِـأُفْقِ دِمَـشْقَ قَـدْ طَلَـعَ الـشِّهابُ أضَـاءَتْ مِنـه هَاتِيْـكَ الرِّحَـابُ
هُمَـامٌ جَـدَّ فـي طَلَـبِ المَعَـالي فـأَحْرَزَ شَـأْوَهَا مِنـه الطِّـلابُ
ومَـوْلى شَـأنُه تَحْرِيْـرُ عِلْـمٍ وتَقْرِيْـرُ المَبَاحِـثِ والخِطَـابُ
حَوَاشِـيْهِ مُنَقَّحَـةُ المَعَـاني ومِـنْ فَـنِّ البَيَـانِ بِهَـا اللُّبَـابُ
فَبَـدْرُ عُـلاهُ مُكْتَمِـلٌ مُنِيْـرٌ يَفِـيضُ بِـدُرِّها مِنْـهُ العُبَـابُ
فَفِـي التَّفْـسِيْرِ مُجْتَهِـدٌ وفِيْمَـا نَحَـاهُ رَأْيُـهُ أبَـداً صَـوَابُ
فَـلا يُلْقَـى لَـهُ نَظِيْـرٌ ولَـيسَ لَـهُ سِـوَى التَّحرِيْـرِ دَابُ

تلتقي معاني قصيدة ابن المنقار في مدح الخفاجي مع معاني قصيدة ابن النحاس السابقة ، فكل من الممدوحين أديب بارع ، وما ذكراه يمثل معظم الصفات التي يُمكن أن يُمدح بها الأدباء ، وإن كان ابن المنقار قدّم الصفات الخاصة على العامة المشتركة(٢) ، وميّزَ ممدوحه بما يختص به من العلوم والمعارف وتحرير الكتب .

ومن شعر التكسب في هذا العصر نذكر إلماح ابن النحاس الحلبي في نهاية إحدى قصائده التي قالها في مدح الأمير منجك(٣) :

حَرَسَـتْهُ شَـوكَةُ حُـسْنِهِ عَـنْ أنْ تُمَـدَّ لَـهُ الأيَـادِي
والعَنْـدَلِيْبُ أمَامَـهُ بِفَـصِيْحِ نَغمتِـهِ يُنَـادِي

---

(١) ريحانة الألبا ١٣١/١ – ١٣٢ .
(٢) تشتمل باقي أبيات القصيدة على الصفات العامة المشتركة التي يُمكن أن يُمدح بها الأدباء وغيرهم من ذوي الجاه أو النفوذ .
(٣) هو الشاعر الأمير منجك بن الأمير محمد بن منجك ، الشركسي الدمشقي ، ولد بدمشق سنة ١٠٠٧ ، وتوفي فيها سنة ١٠٨٠ هجرية . انظر ترجمته في : خلاصة الأثر ٤٠٩/٤ . وريحانة الألبا ٢٣٢/١ . ونفحة الريحانة ١٣٦/١ .

المصادر والمراجع

١. أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، مطبعة القدس، القاهرة ١٣٥١هـ .
٢. أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد قرقزان ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٨٨م .
٣. أحمد صادق الجمال : الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي ، طبعة الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ .
٤. أحمد فوزي الهيب : الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٦م .
٥. تقي الدين أحمد بن علي المقريزي : الخطط ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٨م .
٦. جلال الدين السيوطي : حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧م .
٧. جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٦م .
٨. درويش الجندي : ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده ، طبعة دار نهضة مصر ١٩٦٩م .
٩. ديوان ابن النقيب ، تحقيق عبد الله الجبوري ، طبعة مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٦٣م .
١٠. ديوان ابن الوردي ، مطبعة الجوائب ، القسطنطينية ١٣٠٠هـ .
١١. ديوان ابن مليك الحموي ، المطبعة العلمية ، بيروت ١٣١٢هـ .
١٢. ديوان البوصيري ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، الطبعة الثانية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٧٣م .
١٣. ديوان صفي الدين الحلي ، طبعة دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) .
١٤. السلوى الأندلسي ، عبد القادر بن عبد الرحمن : الكوكب الثابت في أخبار الشعراء وغيرهم من ذوي المناقب . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٢٥ تاريخ تيمور .
١٥. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت ١٩٩٢م .
١٦. شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق محمد حوَّر ، منشورات المجمع الثقافي ، أبو ظبي – الإمارات العربية المتحدة ٢٠٠٣م .
١٧. شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي : ريحانة الألِبَا وزهرة الحياة الدنيا ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٦٧م .
١٨. عبد الفتاح سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ، ط٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٤م .
١٩. عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، طبعة دار التراث ، بيروت ١٩٦٨م.
٢٠. على بن أبي بكر الهيثمي : مجمع الزوائد ، طبعة دار الريان للتراث ، القاهرة ١٤٠٧ هـ .
٢١. عمر موسى باشا : ابن نباته المصري أمير شعراء المشرق ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف، مصر ١٩٩٢م .
٢٢. عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربي – العصر العثماني ، الطبعة الأولى ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ١٩٨٩م .
٢٣. قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، الطبعة الأولى ، مصر ١٩٩٨م .
٢٤. القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، طبعة دار الكتب المصرية ١٩١٣ .
٢٥. محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، طبعة دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) .
٢٦. محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبي : ذيل نفحة الريحانة ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٧١م.

٢٧. محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبي : نفحة الريحانة ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٦٨م.
٢٨. محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي : فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس طبعة دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٣م .
٢٩. محمد بن علي الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، وضع حواشيه خليل المنصور ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت١.
٣٠. محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧١م .
٣١. محمد قطب : واقعنا المعاصر ، الطبعة الأولى ، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، السعودية ١٩٨٦م .
٣٢. محمود الربداوي : ابن حجة الحموي شاعراً وناقداً ، طبعة دار قتيبة ١٩٨٢م .
٣٣. نبيل أبو علي : البوصيري شاهد على العصر المملوكي ، الطبعة الرابعة ، دار المقداد للطباعة ، غزة ٢٠٠٥م.
٣٤. نبيل أبو علي : قصة الحروب الصليبية ، الطبعة الأولى ، مطبعة المقداد ، غزة ١٩٩٢م .
٣٥. نجم الدين محمد بن محمد الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، تحقيق جبرائيل سليمان حبور ، الطبعة الثانية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٩م .